إيدث وارتون

عصر البراءة

رواية

ترجمة

نوف الميموني

أثر

الجزء الأول

الفصل الأول

في مساء أحد أيام يناير في بداية السبعينيات، كانت كريستين نيلسون تصدح بصوتها في مسرحية «فاوست» في أكاديمية الموسيقى في نيويورك.
ورغم أن الحديث كثُر عن إنشاء دار أوبرا جديدة في الشارع الأربعين على مبعدة من قلب المدينة الراقي، تضاهي في ترفها وتألقها الدُورَ المشيّدة في العواصم الأوروبية العظيمة، فإن أعيان المجتمع كانوا قانعين بالاجتماع في كل شتاءٍ في المقصورات الحمراء المذهّبة المتهالكة في هذه الأكاديمية القديمة. فالمتحفظّون يحبونها لصغرها وضيقها، ما يعني أنها لا تجذب «الناس الجدد» الذين تخشاهم نيويورك رغم انجذابها إليهم، والعاطفيون يتمسكون بها لدلالاتها التاريخية، أما أصحاب الحس الموسيقي فيهوونها لما تتمتع به القاعة من مزايا صوتية ممتازة، وهذه مشكلة أبدية في القاعات المصممة لسماع الموسيقى.
كان هذا الظهور الأول لمدام نيلسون في موسم الشتاء ذاك، وقد التف لسماع غنائها «حضور لفيف لم يُشهد من قبل» كما اعتادت الصحف اليومية على وصف الجمهور الذي جاء من كل حدب وصوب لسماعها، متخطين الشوارع المثلجة الزلقة في عربات (بروم) الخاصة ذات الحصان الواحد، أو في عربات (لاندو) التي تسع الأسرة عن بكرة أبيها، أو في عربات (كوبيه) المريحة رغم تواضعها والتي يؤجّرها السيد براون. كان الوصول إلى الأوبرا على متن عربة (كوبيه) وسيلة تنقل راقية تضاهي ذهاب الشخص بعربته الخاصة، وللإياب بالوسيلة نفسها ميزة عظيمة ألا وهي أن الشخص (في تعريض هزلي للمبادئ الديموقراطية) يستطيع ركوب أول عربة في صف عربات براون، بدلاً من أن يتحرى رؤية أنف سائقه المحتقن من الزكام وشرب الچن يلتمع تحت أنوار مدخل الأكاديمية المسقوف. لقد حقق أصحاب الاصطبلات العامة اكتشافًا حاذقًا عندما أدركوا أن الأمريكيين

يتلهفون للفرار من أماكن الترفيه أكثر حتى من تلهفهم لقصدها.
عندما فتح نيولاند آرتشر الباب الخلفي لمقصورة النادي، كانت الستارة قد رُفعت لعرض مشهد الحديقة. ولم يكن هناك في الحقيقة أي سبب يحول دون حضور الشاب إلى الأوبرا مبكرًا، فقد تناول العشاء عند السابعة مع والدته وأخته فقط، ثم توانى في الحضور لتدخين سيجار في مكتبته القوطية بأرففها المصنوعة من خشب الجوز الأسود المصقول والكراسي المصمّعة الأطراف، لأنها الحجرة الوحيدة في المنزل التي تسمح فيها السيدة آرتشر بالتدخين. غير أن نيويورك مدينة عصرية في المقام الأول، ومن المعلوم أنه ليس من الوجاهة في شيء أن تصل إلى الأوبرا مبكرًا. وأصول الوجاهة تلعب دورًا مهمًا في حياة نيولاند آرتشر في نيويورك لا يماثلها هيبةً ولا قداسةً سوى الرهبةِ الغامضة التي كان يلقيها وثنٌ في قلوب أسلافه منذ آلاف السنين فيتحكم في أقدارهم.
أما السبب الثاني الذي دفعه للتأخر في الحضور فهو سبب شخصي. لقد تباطأ في تدخين سيجاره لأنه كان في قرارة نفسه رجلٌ ذو هوى، والتفكير في المتعة يمنحه غالبًا رضا أكبر من التلذذ بها. وهذا ما يحدث خصوصًا إن كانت المتعة رغيدة كما هي متعه في غالبها. وفي ذلك المساء، كانت اللحظة التي يتطلع إليها لحظة نادرة ونفيسة حتى إنه... حتى إنه لو أُقت حضوره بالاتفاق مع مدير المسرح لما دخل الأكاديمية في وقت أنسب من اللحظة التي كانت تصدح فيها مغنية الأوبرا الأولى: «يحبني.. لا يحبني.. يحبني!» وهي تنثر بتلات الأقحوان المتساقطة مع نغمات بعذوبة قطرات الندى.
غير أنها كانت تقول «يحبني!» بالإيطالية لا الإنجليزية، لأن لعالم الموسيقى قاعدة راسخة لا عدول عنها توجب أن يُترجم النص الألماني في مسرحيات الأوبرا الفرنسية التي يؤديها الفنانون السويديون إلى اللغة الإيطالية كي يتسنى للجماهير التي تتحدث الإنجليزية فهمها. وهذا عُرفٌ من جملة الأعراف التي يسلّم بها نيولاند وتشكّل حياته، مثل استعمال فرشاتين فضيتين مزخرفتين بأحرف اسمه المطلية بالمينا الزرقاء كي يفرق شعره، وألا

يظهر أبدًا أمام الناس في مجتمعه دون زهرة تزّين عروة معطفه (ويا حبذا لو كانت زهرة الغاردينيا).

غنّت المطربة العظيمة: «يحبني... لا يحبني» ثم رفعت صوتها بكلمة واحدة «يحبني!» تعلن بها انتصار الحب، وهي تضغط الأقحوانة المتغضنة على شفتيها، ثم رفعت عينيها النجلاوين لتنظر إلى طلعة فاوست البهية (وكان يقوم بدوره كابول[1]) بصدريته الضيقة من القطيفة الأرجوانية وقبعته المزيّنة بالريش، وهو يحاول عبثًا أن يبدو ببراءة ضحيته الغرّة وطهارتها.

كان نيولاند متكأً على الجدار الخلفي لمقصورة النادي. أشاح بصره عن خشبة المسرح وأجاله في الناحية المقابلة من دار الأوبرا. أمامه مباشرةً كانت مقصورة حرم السيد مانسون مينغت التي منعتها بدانتها المفرطة من حضور الأوبرا منذ فترة طويلة، ولكن دائمًا ما كان ينوب عنها في الأمسيات الرائقة بعض أفراد أسرتها الأصغر سنًا. وفي ذلك المساء، ضمت مقصورتها زوجة ابنها السيد لوفيل مينغت، وابنتها السيدة ويلند، ووراء هاتين المرأتين المتأنقتين كانت تنكفئ فتاة بفستان أبيض وعينين متسمرتين بحبور شديد في العاشقين على المسرح. وحينما صاحت مدام نيلسون بكلمة «يحبني!» في أرجاء المسرح الصامت (وكان أصحاب المقصورات يكفّون دائمًا عن الحديث أثناء «أغنية الأقحوانة»)، تخضب خديّ الفتاة بحمرةٍ تجاوزت حاجبيها لتصل إلى منابت ضفائرها الشقراء، وأشربت صدرها النضر حتى وصلت حد قميص التول الحريري الناعم الذي لا يطرّزه سوى زهرةٍ غاردينيا واحدة. أرخت ناظريها إلى باقتها الضخمة من زهور زنابق الوادي التي وضعتها على ركبتها، ورأى نيولاند أناملها المكسوة بالقفاز الأبيض تتحسس الأزهار بنعومة، فجذب نَفَسًا من صدره بزهوٍ ورضا عن نفسه، وأعاد بصره إلى خشبة المسرح.

لم يُدّخر أي مالٍ في إعداد هذا المشهد المسرحي، وقد أقر بجماله الخلاّب أولئك الذين اعتادوا على ارتياد دور الأوبرا في باريس وڤيينا مثل نيولاند.

(١) ڤيكتور كابول: مطرب أوبرالي فرنسي.

كانت مقدمة المسرح مغطاة بقماش أخضر زمرديّ يصل حتى الأضواء الأمامية، وقد شكّلت أكوام الطحالب الصوفية الخضراء التي تحيط بأطواق الكروكيت في المنتصف قاعدةً لشجيرات مصممة لتبدو كأشجار البرتقال، ولكنها موشّاة بوردٍ حمراء وزهرية كبيرة. ومن الطحالب المتجمّعة تحت أشجار الورد انبثقت أزهار البنفسج الضخمة التي تتفوق بحجمها على الورود، وتشبه مماسح الأقلام[1] التي تحيكها سيدات الأبرشية للقساوسة المتأنقين. وقد أينعت هنا وهناك زهرات الأقحوان على أغصان الورد بغزارة تتكهن بإبداعات السيد لوثر بربانك[2] في المستقبل البعيد.

وفي منتصف تلك الحديقة الغنّاء وقفت مدام نيلسون بحلّةٍ من الكشمير الأبيض تشقّها خطوط الساتان السماويّ، مع حقيبة صغيرة من قماش تتدلى من حزام أزرق، وضفيرتين صفراوين كبيرتين تحيطان جانبي قميص الموسلين بعناية، وهي تنصت بعينين مسبلتين إلى تغزل كابول المشبوب العاطفة، وتتكلف جهلاً بريئًا بمقاصده كلما لمّح بنظرةٍ أو بكلمةٍ إلى نافذة الطابق الأرضي من الفيلا الجميلة التي تبرز مائلةً من الجناح الأيمن.

تسللت نظرات نيولاند عائدةً إلى تلك الصبية التي تحمل زنابق الوادي، وفكّر: «يا لبراءتها! ليس لديها أدنى فكرة عما يحدث». ظل يتأمل وجهها الفتيّ وانهماكها في متابعة المشهد بنشوة استحواذية اختلط فيها زهوه بنضجه الذكوري مع تبجيله لعفّتها اللامتناهية. قال في نفسه: «سنقرأ فاوست معًا... على ضفاف البحيرات الإيطالية...» فدمج في غمرة تشوش تفكيره بين تصوره لشهر العسل ومشاهد التحف الأدبية التي سيكشفها لعروسه كما يحتّم عليه واجبه الرجولي. ففي ظهيرة ذلك اليوم، ألمحت ماي ويلند إلى أنها «مهتمة به» (وهذا ما تقوله العذارى في نيويورك اعترافًا بمشاعرهن)، وهذا خياله يقفز متجاوزًا خاتم الخطبة، والقبلة الأولى، وزفة العرس، لتتمثل له

(١) ممسحة القلم: هي قطعة من القماش المطرّز لمسح الحبر عن طرف القلم.

(٢) لوثر بربانك: عالم نبات أمريكي من رواد تهجين الأزهار.

عروسه إلى جواره في مشهد من مشاهد العشق الأوروبي الساحر.

ما كان نيولاند يتمنى أبدًا أن تكون حرمه في المستقبل امرأة ساذجة، بل كان يصبو إلى أن تتحلى (بفضل مرافقتها له وتنوّرها بنور ثقافته) باللباقة الاجتماعية وحضور البديهة ما يجعلها تقف على قدم المساواة مع أكثر الشابّات المتزوجات شعبيةً في مجتمعها. حيث جرى العرف أن يكنّ محط إعجاب الجنس الآخر، ولكنهن يتمنعن بعبث لاهٍ عن أن يتجاوز الأمر أكثر من الإعجاب. ولو أنه نظر في أصل غروره (كما يكاد يفعل أحيانًا) لوجد أنه يرغب في أن تكون زوجته امرأةً محنّكةً توّاقة لإرضائه - كتلك السيدة المتزوجة التي سحرت عقله لعامين عكرا صفو حياته - لكن دون أن يشوب شخصيتها أي لمحة ضعف كذلك الضعف الذي أغمّ حياة تلك المحزونة، وأفسد مخططاته طيلة فصل الشتاء.

كيف ستلتقي معجزة النار والثلج؟ وكيف ستحمي نفسها في هذا العالم القاسي؟ لم يمعن النظر قط في هذه الأسئلة، بل هو قانعٌ بأن يطلق بصره فيما أمامه دون أن يمعن النظر، وهو المدرك أن ما نتج عن هذا المجتمع سوى السادة ذوي الشعور المسرّحة، والصدريّات البيضاء، والمعاطف المزيّنة عُرُواتها بالأزهار؛ السادة الذين يتتابعون على مقصورة النادي ويتبادلون معه التحيات الودودة، وهم يلتفتون بمناظير الأوبرا ممعنين أبصارهم بحشود السيدات اللاتي شكّلهن مجتمعهم. إن كان الأمر يتعلق بالثقافة والفن فإن نيولاند كان يرى أن له الغلبة على هذه العينة من نبلاء نيويورك القديمة، فالأرجح أنه قد اطّلع وتدبر ورأى من الدنيا أكثر من أي رجل آخر من جماعته. إنك إن أخذت سكان نيويورك كل فردٍ على حدة لوجدته ناقصًا، لكنهم مجتمعين يجسدون «نيويورك»، ولذا فإن عادة التآزر الذكوري هذه هي ما جعلته يعتنق مذهبهم في تعريف كل ما هو أخلاقي. فلقد حدس أنه في خروجه عنهم في هذا الصدد متاعب، ولربما يصل الأمر حتى إلى أن يكون تجاوزًا للتقاليد.

«عجبـــــي!»

هتف بها لورنس ليفرتس بعد أن التفت بمنظاره بغتةً بعيدًا عن المسرح.

كان لورنـس ليفرتس المرجعية الأولى في «المظاهـر» في نيويورك. فلقد كرّس وقته أكثر من أي شـخص آخر لدراسـة هذه المسـألة العويصة الشائقة، لكنّ الدراسـة وحدهـا لا تفسّر كفاءته الفطرية في هذا الشـأن. فما على الشـخص إلا أن ينظر إليه – من انحدار مقدمة رأسـه الصلعاء وتقوس شـاربه الأشقر الجميل، مرورًا بقوامه المشدود الأنيق، ووصولاً إلى قدميه الطويلتين وحذائه الجلـدي اللامع – كي يوقـن أن معرفة «المظاهر» في أي رجل يتأنق هكذا بلا عنـاء، ويمـشي بهـذا الطول بكل رشـاقة ودعة، لابـد أن تكـون غريزية. كما قـال عنه أحد معجبيـه مرة: «إن كان ثمة رجلٌ يعرف متـى ينبغي على النبيل أن يرتدي ربطة عنق سـوداء مع ملابس المسـاء ومتى يجـب ألا يرتديها، فهو لورنـس ليفرتس»، ولا يختلف اثنان عـلى أن رأيه هو الفيصل إن كنت محتارًا بين ارتداء الحذاء ذي الكعب أو حذاء «أكسفورد» الجلدي اللمّاع.

قال:

-يا إلهي!

ومدّ منظاره لسيلرتون جاكسون العجوز دون أن ينطق بكلمة أخرى.

تبـع نيولانـد نظر ليفرتس، فرأى باندهاش أن سـبب تعجبـه هو دخول فرد جديد إلى مقصورة السـيدة مينغت العجوز. كان ذلك الشخص شابةً رشيقة أقـصر قليـلاً من ماي، ذات شـعر بنـي مصفف على هيئة خصـلات معقوفة تحـاذي صدغيهـا، ومثبّتـة بطـوق رفيع من الألمـاس. وقد ارتـدت مع غطاء الـرأس هذا – الذي أضفى عليها المظهر المعروف باسـم «مظهر جوزفين[1]» – فسـتانًا نيليًا من المخمل ينكمش ببهرجة أسـفل صدرهـا بحزام ذي إبزيم عريـض قديم الطـراز. وقفت صاحبة هذا الفسـتان الغريب التـي لم يبدُ أنها أحسـت بـأن فسـتانها كان محط الانتبـاه لحظـةً في منتصف المقصـورة تناقش

(١) جوزفين لا باجيري: امبراطورة فرنسا الأولى وزوجة نابليون بونابرت.

خلالها مع السيدة ويلند مدى ملائمة جلوسها مكان الأخيرة في الركن الأمامي في يمين المقصورة، لكنها أذعنت ببسمةٍ يسيرة وجلست في الصف الذي تجلس فيه زوجة السيد لوفيل مينغت أخو السيدة ويلند التي كانت تقبع في الركن المقابل.

أعاد السيد سيلرتون جاكسون منظار الأوبرا إلى لورنس ليفرتس. والتفت أعضاء النادي التفاتة الرجل الواحد إليه متأهبين لسماع ما سيقوله العجوز، فمثلما كان السيد لورنس ليفرتس المرجعية الأولى في «المظاهر» فإن السيد جاكسون المسّن كان المرجعية الأولى في «تاريخ العائلات». فقد كان على علمٍ بكل صلات القرابة المتشعّبة بين وجهاء نيويورك، وما كان علمه قاصرًا على توضيح العلاقات المعقدّة منها فحسب، كالعلاقة بين أسرة مينغت (من خلال مصاهرتهم لأسرة ثورلي) مع أسرة دالاس من كارولاينا الجنوبية، أو الروابط بين فرع أسرة ثورلي القديم في فيلادلفيا مع أسرة تشيڤرس من ألباني (وانتبه فلا تخلط أبدًا بينهم وبين أسرة مانسون تشيڤرس من يونيفيرستي بليس في واشنطن)، بل بلغ علمه إلى حد إحصاء الصفات المميزة لكل أسرة، مثل البخل الرهيب لأجيال أسرة ليفرتس الجديدة (الذين ينحدرون من لونغ آيلند)، أو نزوع أسرة راشوورث المدمّر لعقد زيجات غير متوافقة، أو الجنون الوراثي الذي يبرز في كل جيلين من أسرة تشيڤرس في ألباني، مما دعا أبناء عمومتهم في نيويورك إلى رفض الزواج منهم (ما عدا المصيبة التي حلّت على المسكينة ميدورا مانسون التي لا يخفى عن أحد ما حدث لها... لكن لا تنسَ أن أمها كانت من أسرة راشوورث).

إضافةً إلى توغل السيد سيلرتون جاكسون في هذه الغابة من أشجار العائلات، فإنه يحمل بين صدغيه الرفيعين وتحت شعره الكثّ الفضي الأملس حافظةً تحوي كل الفضائح والوقائع الغامضة التي توقدت تحت سطح مجتمع نيويورك الهامد خلال الأعوام الخمسين الماضية. إن اطلاعه واسع وذاكرته قوية إلى درجة أنه قد يكون الرجل الوحيد الذي يستطيع أن

يخبرك بحقيقة أصل جوليوس بوفرت المصرفيّ، وماذا حدث لبوب سبايسر الوسيم والد السيدة مينغت العجوز، الذي اختفى في ظروفٍ محيّرة (ومعه مبلغ ضخم من وديعة الأسرة) بعد مرور أقل من عام على زواجه، وفي اليوم نفسه الذي أبحرت فيه إلى كوبا راقصة إسبانية حسناء كانت تبهج الحشود المجتمعة في دار الأوبرا القديمة في منطقة باتري. غير أن هذه الأحداث الغامضة وغيرها الكثير كانت محفوظةً مصونة في صدر السيد جاكسون، وليس السبب الوحيد لهذا هو أن شرفه يمنعه من أن يفشي سرًا قد أؤتمن عليه، بل وكذلك لأنه يدرك تمام الإدراك أن سمعته في حفظ الأخبار تزيد من فرصه في اكتشاف ما يود معرفته.

وعلى هذا ارتقب من في مقصورة النادي بشوق جليّ ما سيقوله السيد سيلرتون جاكسون بينما كان يعيد منظار لورنس ليفرتس الأوبرالي إليه. أمضى حينًا يتفرس بعينين زرقاوين شفافتين يظللهما جفنان متغضنان وبصمتٍ كاملٍ وجوه الجماعة الملتفتة إليه، ثم فتل شاربه متأملاً وقال ببساطة:

-ما كنتُ أظن أن أسرة مينغت ستجرؤ على فعل هذا.